(٧)

بين الجباية والهداية

(إنما تقوم الحكومات فى الأصل لتحكم بالحق والحكمة ، ومن هنا كان اشتقاق اسمها ، ولكن الحكومات تفرقت بها السبيل ، فالكثير منها صار الجباية وحدها تستغل وتجمع وتكنز ظالمة . فتشيع بذلك روح التمرد والخيانة والاهمال ! . .

ولقد بعث الله بالاسلام محمدا صلوات الله عليه هاديا لا جابيا . ومتى سبقت الهداية فقد ضمنت الجباية دون ان تقصد . وما تمتع به الأخيار وزادوا عليه رضا الله . وتاريخ الاسلام يفيض بأروع الامثال فى عفة الحاكمين وعدالة القائدين وزهد القادرين . ولن يصلح الأمر اليوم إلا بما صلح به اوله لو كانوا يعقلون) .

الشرباصى

بين الجباية والهداية

الدول والحكومات قسمان ، دولة شعارها الجباية ، ودولة شعارها الهدا وكل لها طابع خاص ونفسية خاصة ، ورجال ممتازون ، ولكل نتائج متميزة

فميزان الأشياء ومناط الأحكام فى دولة الجباية هو تضخم الميزانية وكثرة الدخل والايراد ، ورفاهية رجال الحكومة واحتفال الحضارة وزهو المدنية ، وإن كان ذلك بامتصاص دماء الفقراء وشقاء الفلاحين والعملة والضرائب المجحفة والمكوس المرهقة ، فلا يعنى هذا الضرب من الحكومة إلا بما يزيد فى مواردها وماليتها ، وبما يهيء لها أسباب الفخار والزينة والأبهة وبما يهنىء للامراء والوزراء وأبنائهم وأبناء أبنائهم والمتصلين بهم ورجال الحكومة وأسرهم وخدمهم أسباب الترف والتنعم والبذخ ، وبما يبنون به قصوراً فاخرة، ويشترون به أملاكا واسعة فى داخل البلاد وخارجها .

تغفل هذه الحكومة تربية الجمهور الدينية والخلقية وتعطل الحسبة والرقابة على الأخلاق والنزعات وتتغافل عن كل ماليس بسبيلها وما لايجر عليها فائدة مالية أو قوة سياسية ، وقد تبيح منكراً أو محرماً إذا كانت تجنى منه نفعا وتحرم مباحاً إذا كانت تخاف منه خطراً سياسيا أو خسارة مالية ، ولا يزال الجشع والنهامة للمال تدفعها وتزين لها خطتها حتى تفرض ضرائب على العبادات وعلى الموت والحياة . وهكذا تتحول من حكومة ساهرة على مصالح الجمهور وراحتهم ومن مربية وحارسة للامة إلى شركة تجارية كبيرة لايهمها إلا جمع الأموال وزيادة الارباح .

أما الدولة التى شعارها الهداية فمهمتها الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومعيارها تحسن أخلاق الجمهور وسمو روحهم وتحليهم بالفضائل وإقبالهم على الآخرة وزهدهم فى الدنيا والقناعه فى المعيشة واجتنابهم المحرمات والمعاصى وتنافسهم فى الخيرات ، ولو كان ذلك على حساب ميزانيتها وخسارة ماليتها ، فتنصب الواعظ وترسل الدعاة وتشجع الحسبة وتمنع الخمور وتنكر على الفجور ، وتحرم الملاهى والمعازف . وتطارد المشتهرين والخلعاء ، وتمنع كل

يفسد على الناس عقيدتهم وأخلاقهم ، ويفسد الحياة المنزلية ، وتغص فى حكمها المساجد وتقفر الحانات ، ويزدهر الدين والتقوى ، وتضمحل المعاصى والجنايات ويقوم أهل الدين والصلاح وينشطون ويتحمسون ، ويتوارى الفجار والملحدون وينكمشون . ويكون ما وصفه الله تعالى « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

تمتاز مضخة حكومة الهداية بأسرها عن مضخة حكومة الجباية بأسرها . تمتاز عنها فى النزعات والروح . والسيرة والمعاملة والسلوك . فنرى فى الأولى التطوع والاحتساب . وروح الخدمة والإيثار والأمانة والتضحية والوفاء . بينما نرى فى رجال حكومة الجباية معاكسة القانون ورجاله والاجتهاد فى معاجزته والتفلت منه . والكبر والتجبر والأثرة والخيانة والنفاق والزور وفشو الرشوة إلى حد يدعو الانسان بين الركن والمقام أن لا يبتلى بهم ، فلا ينال الانسان حقه من العدل والراحة ولا يتمتع بحقوقه المدنية إلا اذا رضخ من ماله لهذا وقدم طعمة لذاك . ويستحفل الأمر ويجل الخطب حتى لا يرى أحد فى هذه الحكومة أنه خادم أمة وأمين حكومة . لا يعد نفسه إلا جابيا — ولكن لنفسه وعياله — قد منحته الحكومة فرضه جمع الأموال فلا يريد أن تفلته هذه الفرصة ويتخلف عن قافلة الجباة الشخصيين وقد اشتد بها الجد وجد بها السير .

لقد سبق فى التاريخ أمثلة لكل من حكومات الجباية والهداية . أما حكومات الجباية فلا تحتاج إلى تمثيل ولا إلى شرح وبيان . فانها هى السائدة الفاشية فى الماضى والحاضر وفى الشرق والغرب . وقد جربها الانسان وعرفها فى كل عصر . أما حكومات الهداية فهى نادرة جداً . فلنضرب لها مثلا .

بعث محمد ﷺ فدعا الناس إلى الاسلام فالتفت حوله « فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهه ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا » . وكان هؤلاء الفتيان هدف كل قسوة وظلم واضطهاد وبلاء وعذاب وقد قيل لهم من

قبل ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » . فصمدوا لكل ماوقع لهم وثبتوا كالجبال وقالوا « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله . حتى أذن الله فى الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشق طريقها وتؤتى أكلها حتى قضى الله أن يحكم رجالها فى الأرض ويقيموا القسط ويخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعتها . فقد عرف أنهم اذا تولوا وسادوا « أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة كما تأتى الأمطار بالخصب والزرع وكما تأتى الأشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة الا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الاسلامية . ولم تكن هذه العزة والقوة الا نتيجة ذلك العذاب الذى تحملوه من قريش وغيرهم وذلك الهوان الذى لقوه فى مكة وغيرها .

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزة وشوكة ورجال وأموال وكنوز وخزائن وجباية وخراج ورفاهة ونعيم وكان المجال واسعا جدا لجمع الأموال وحكم الرجال ورفاهة الحال اذا اختاروا طريق الملوك والسلاطين فى فرض الضرائب الكثيرة والاتاوات المتنوعة والمكوس الجائرة .

التفت القوم فإذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق — طريق الجباية وطريق الهداية . هنالك سمعوا هاتفا يقول « ويحكم ان محمدا ﷺ لم يبعث جابيا وإنما بعث هاديا وأنتم خلفائه » . فلم يترددوا فى ايثار جانب الهداية على جانب الجباية واتخاذ الدعوة والهداية شعارا ومبدأ لحكومتهم فكان ذلك .

لقد علموا أنهم لو آثروا جانب الجباية وأطلقوا أيديهم فى أموال الناس واسترسلوا الى النعيم ورتعوا فى اللذات لم يحل بينهم وبين ذلك أحد ولم يقف فى سبيلهم واقف . ولكنهم علموا أنهم لو فعلوا ذلك لقد غشوا اخوانهم الذين سقوهم بالايمان وقضوا نحبهم بدون أن يأكلوا ثمار غرسهم ، لقد خانوا أولئك الذين لم يعرفوا إلا الجهاد والتعب والجوع والسغب ولقد وصلوا الى الحكومة

على جسر من متاعبهم وإيثارهم . أفيجوز لهم أن يستغلوها لمصلحتهم وشهواتهم وأبنائهم وأقاربهم ويتمرغوا فى النعيم ويسرفوا فى الأكل والشرب ؟ لقد ظلوا إذن عثمان بن مظعون وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعد بن عمير وأنس بن النضر وسعد بن معاذ وكثيرا من رفقتهم الذين لم يروا شيئا من الفتوح والغنائم ولم يشبعوا أياما متوالية ، وقف القوم ولم يطب لهم الأكل والشرب وارادوا ان يلحقوا بأخوانهم ولم يأخذوا من الدنيا إلا البلاغ .

تأسست دولة الاسلام وفتحت فارس وبلاد الروم والشام ونقلت الى عاصمة الاسلام - المدينة المنورة - كنوز كسرى وقيصر وانصبت عليها خيرات المملكتين العظيمتين وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وطرفها وزخارفها مالم يدر قط بخلدهم ، وقد انقضى على اسلامهم ربع قرن وهم فى شدة وجهد من العيش وفى جشوبة المطعم وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام الا مايقيم صلبهم ولا من اللباس الا مايقيهم من البرد والحر ، فاذا بهم اليوم يتحكمون فى اموال الاباطره والاكاسرة فاذا اراد الواحد منهم ان يلبس تاج كسرى وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت والله هذه محنة عظيمة تزول فيها الجبال الراسيات وتطير له القلوب من جوانحها وتعمش لها العيون ، ولكنهم سرعان ما فطنوا انهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل انهم خيروا بين ان يتنازلوا عن دعوتهم وإمامتهم ومبادئهم وينفضوا منها يدهم فلا يطمعوا فيها ابدا ، وبين ان يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين .

كان لهم أن يؤسسوا ملكا عربيا عظيما على أنقاض الدولة الرومية والفارسية وينعموا كما نعم ملوكها وأمرائها من قبل فقد ورثوا إمبراطوريتين ، الفارسية والرومية ، وجمعوا بين موارد دولتين . فاذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط وإذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفه بموارد الامبراطوريتين ويبذخ بذخا لم يبذخه أحدهما .

كان له ولأصحابه كل ذلك بكل سهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن يقول «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين»

وكانهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته « لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما اهلكتهم » . فتهتفوا عن آخرهم قائلين

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة

وهكذا حافظوا على روح الدعوة الاسلامية وسيرة الأنبياء والمرسلين وعاشوا فى الحكومة كرجال الدعوة . وفى الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا انفسهم فى هذا التيار الجارف الذى سال قبلهم بالمدنيات والحكومات والشعوب والامم ، وسال بالمبادىء والأخلاق والعلوم والحكم .

ما زال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ووصولهم إلى الشط الثانى من غير ان يصابوا فى نفس اومال اومتاع حادثا غريبا من اغرب ما وقع فى التاريخ . إن الحادث لغريب ولكن اشد منه غرابة وأدعى للعجب ان المسلمين فى عهد الخلافة الراشدة وعصر الفتوح الاسلامية الأولى خاضوا فى بحر مدنية الروم وفارس وهو مائج هائج وعبروه ولم يفقدوا شيئا من اخلاقهم ومبادئهم وعاداتهم ووصلوا إلى الشط الثانى ولم تبتل ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون وامراء الدولة الاسلامية من اصحاب النبى ﷺ محتفظين بروحهم ونفسيتهم وزهدهم وبساطتهم فى المعيشة وتخشنهم فى اوج الفتوح الاسلامية .

حكى الطبرى دخول الهرمزان المدينة ومواجهته لعمر رضى الله عنه ، قال : هيئوا الهرمزان فى هيئته فألبسوه كسوته من الديباج الذى فيه الذهب ووضعوا على رأسه تاجا يدعى الآذين مكللا بالياقوت وعليه حليته كما يراه عمر والمسلمون فى هيئته ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر فى منزله فلم يجدوه فسألوا عنه ، فقيل جلس فى المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه فى المسجد فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ما تلدكم تريدون أمير المؤمنين ؟ فانه نائم فى ميمنة المسجد متوسدا برنسه ! وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة فى برنس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه وضع برنسه ثم توسده فنام . فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه : وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره . والدرة فى يده معلقة ، فقال الهرمزان :

أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ! وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه وأصغى الهرمزان إلى الوفد فقال : أين حرسه وحجابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان ! قال فينبغي له أن يكون نبيا ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء . وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا ثم نظر إلى الهرمزان فقال : الهرمزان ؟ قالوا : نعم ! فتامله وتأمل ما عليه وقال أعوذ بالله من النار واستعين الله ؛ وقال : الحمد لله الذى أذل هذا وأشياعه ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة فقال الوفد هذا ملك الأهواز . فكلمه ، فقال : لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء فرمى عنه بكل شيء عليه إلا شيئا يستره وألبسوه ثوبا صفيقا فكلمه (١) .

ويصف ضرار بن ضمرة على ابن أبي طالب فى خلافه بعد وفاة على لمعاوية فيقول : « يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ماخشن ومن الطعام ماجشب ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه . وقد مثل فى محرابه ، قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ، وكأنى أسمعه وهو يقول : يادنيا ، أبى تعرضت أم لى تشوفت هيهات هيهات غرى غيرى ، قد بتتك ثلاثا لا رجعة لى فيك ، فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير . آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق (٢) .

كان شعار الدولة الاسلامية الأولى الهداية والدعوة إلى الله وخدمة الناس فكانت الدولة تخسر أموالا عظيمة فى سبيل الاخلاق والدين ، وكانت إذا خيرت بين أرواح الرجال ومبالغ من المال اختارت الأرواح وخسرت الأرباح ، وتطيب بذلك نفسا وتقر به عينا ، وإذا كان عكس ذلك فكسبت الأموال وخسرت الرجال ، حزنت لذلك وحزن المسلمون كحزنهم على ملك زائل وسلطان راحل .

---

١ — تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٠٧ .

٢ — صفة الصفوة لابن الجوزى ج

وقد فضل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن يدخل المجوس والنصارى فى الاسلام ويعفوا من الجزية فيخسر بيت مال المسلمين مقدارا عظيما من المال ويكسب الدين الاسلامى والأمة الاسلامية رجالا يتخلصون من النار . وإذا كسب وربح بيت المال على حساب الاسلام حزنوا حزنا شديداً .

حدث الطبرى عن زياد بن جزء الزبيدى ، قال : جمعنا فى مصر ما فى أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الاسلام وبين النصرانية فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية . قال ثم نحوزه إلينا . وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم ووضعنا علية الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم (١) .

وهكذا انتشر الاسلام وانتشرت الأخلاق الفاضله فى عقود من السنين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وتغلغلت الدعوة الاسلامية فى أحشاء المجتمع البشرى ، لم يتمتع العالم الاسلامى بخلافة عمر بن عبد العزيز إلا سنتين وبضع شهور ولكنه بحرصه على الدعوة ومحافظته على شعار الهداية وسيرة خلفاء الانبياء عليهم السلام تمكن من التأثير فى القلوب والعقول ، وقلب تيار المدينة واظهار الدين واخماد الكفر والفسق والقضاء على رسوم الجاهلية مالم تتمكن منه دول اسلامية طويلة الأعمار لتراوحها بين الهداية والجباية وتفضلها الجباية فى أكثر الاحيان على الهداية .

وكانت المدن الاسلامية الكبرى وعواصم الاسلام مركز دعوة وهداية بحيث اذا دخلها الانسان عرف أنه يمشى فى مركز الاسلام ويتنفس فى جوه فيرى الحدود قائمة وأحكام الشرع نافذة ، ولا يجد أحدا يتهاون فى أمر من أمور الدين ويستخف به أو يجاهر باثم ومعصية ، ولا يرى بدعة ولا فجوراً ولا دعارة ولا خدعة ، ولا يسمع رشوة ولا خيانة ولا ماينافى روح الاسلام ، ويسمع الدعوة الى الله وإلى الدار الآخرة وإلى الفضيلة والتقوى واتباع الكتاب والسنة والاجتناب من الشرك والبدعة والتمسك بفضائل الدين فى كل مكان ويرى العمل بذلك فى

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٢٧

الطرقات والمجامع وبيوت الناس ودواوين الحكومة ، فيشبع بروح الدين ويتضلع ايمانا وحماسه وفقها فى الدين ومعرفة بأحكامه وشرائعه وحبا لأهله، فلا يخرج الا وقد استفاد الايمان والعلم والتصلب فى الدين والثقة برجاله وبمثليه، وإذا دخلها اجنبى أو حديث عهد بالاسلام عرف مزايا الحياة الاسلامية وفضل حكومة الاسلام وآثر الاقامة فيها وكره ان يفارقها ويعود إلى دار الكفر كما يكره أن يقذف بالنار .

أما الحرمان فقد كان فى الاسلام — المؤسسة على مبدأ الهداية — مدرسة الدين ومعهد الحضارة الاسلامية تتمثل فيها الحياة الاسلامية بكمالها وجمالها ويأتى إليها المسلمون من كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى ومن كل فج عميق فيشهدون منافع لهم ويتفقهون فى الدين وينذرون قومهم اذا رجعوا اليهم ، ويحتجون فى بلادهم بما رأوه فى الحرمين فيكون ذلك حجة لمحافظة الحجاز على الدين والسنة وحرص حكومتها على تمثيل الحياة الاسلامية فى مركز الاسلام ومنبعه ،

ثم أتى على المسلمين حين من الدهر نسوا أن الحكومة فى الاسلام لم تكن إلا جائزة الدعوة والجهاد فى سبيلها . ولولا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الى الله ، وما لقى فى مكة والطائف من قريش والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء فى غار ثور والرباعية المكسورة يوم أحد ، ولولا ماصنع بحمزة يومئذ ، ولو لاقتلى بئر معونة ومصلوب الانصار ، (١) لما دانت الدنيا للعرب ولا كانت دمشق ولا بغداد ، ولا كان لبنى مروان أن يجبوا خراج الروم وفارس ، ولا كان للرشيد أن يقول لسحابة مرت به « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » .

أسس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم على مبدأ الجباية والسياسة، وأهملوا الدعوة إلى الله وإلى دار السلام وعطلوا الحدود وأبطلوا الحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ولم تعد مراكز

---

(١) هو خبيب بن عدى بن مالك الذى قتله بنو الحارث بن عامر وبضعوا لحمه وحملوه على جذعة وهو القائل :

ولست ابالى حين اقتل مسلما على اى جنب كان فى الله مصرعى

الاسلام مدرسة الدين ومرآة لمدنيته واجتماعه بل أصبحت تغرس الشك والنفاق في قلوب الوافدين وتزعزع عقيدتهم وثقتهم بالدين واهله ، واصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الاسلامي يكتسبون منها استخفافا بشعائر الاسلام ورقة في الدين ووهنا في العمل وسوء ظن بممثلي الاسلام ؛ ورجعوا يحتجون بالأوضاع الفاسدة في مراكز الاسلام وبالفوضى الدينية فكانت داهية عظيمة على رجال الاصلاح والدعوة في الأقطار الاسلامية وفتنة كبيرة .

ليس العالم الاسلامي اليوم بأشد افتقارا الى شيء ، منه الى حكومة تمثله تمثيلا صحيحا وتقوم على أساس الدعوة والهداية والنصيحة والخدمة فان الاسلام لايؤثر في عقول الناس ولا يشفي المتفحصين حتى تكون له رقعة في الأرض تتمثل فيها حياته وتتجلى فيها مدنيته واجتماعه وتظهر فيها نتائج دعوته وتعاليمه ، فاذا كان ذلك ولو في رقعة صغيرة كان على الاسلام اقبال عظيم لم يعهد من قرون .

وليس العالم الانساني بأقل افتقاراً من العالم الاسلامي إلى مثل هذه الحكومة الى شعارها الهداية والاصلاح ، لا الجباية والكفاح ، فإن الانسانية العليلة جريحة لايسعفها اليوم الا قيام هذه الحكومة التي تتأسس على أساس الفضيلة والدين واحترام الانسانية ، وإيثار الأرواح على الأرباح ، والاخلاق على الأعلاق وكسب الرجال على كسب الاموال ؛ فاذا تأسست هذه الحكومة — مهما كانت صغيرة ومهما كانت مواردها ضيقة — كان ذلك حادثا غريبا يستحق كل تنويه وإشادة ، وقام كبار السياسيين وأصحاب اليراع وقاده الفكر يشيرون اليها بالبنان ويضربون بها الامثال ، ويؤلفون عنها مؤلفات وأصبح الناس يأوون اليها كما يأوى الغرقى إلى جزيرة في البحر ، لينعموا في ظل حكومتها وينفضوا عنهم غبار الظلم والفتن ويتنفسوا من متاعب المدنية المعقدة المزورة والحكومات الجابية الجائرة ، ولكانت هذه الحكومة غرة في جبين الدهر وشامة بين الحكومات والدول .

إن الانسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف أنواعها وأسمائها — من شخصية وديمقراطية ورأسمالية واشتراكية — فوجدتها بنات علات لاتختلف

فى اصلها ومبدئها وروحها ونزعتها ، وقلبتها على كل جانب فلم تر منها إلا شرا ومرا ولم تر اختلاف الأسماء يغنى عن شىء ، وإذا تأسست جديدة باسم جديد نادى لسان الحقيقة فى لفظ أبى العلاء المعرى :

ألا إنما الأيام أبناء واحد وهذه الليالى كلها أخوات

فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذى مرت به السنوات

وإذا أضيفت الى هذه الحكومات المعدودة بالمئات حكومة جديدة لاتختلف عن أخواتها إلا أنها يرأسها مسلم أو يديرها عدد من المسلمين لم تكن بدعا ولم تكن شيئا طريفا ينوه به أو يشار إليه بالبنان ، أو تعقد به الآمال ، فان هنالك حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات فى طول مساحتها وضخامة ميزانيتها وكثرة إنتاجها وإصدارها وفى جيشها وأساطيلها وبوارجها الحربية وعدد الطائرات وكثرة المصانع ورقى الصناعة والتجارة واحتفال المدنية والحضارة وحسن الادارة وانتشار العلم فى طبقات الشعب وقلة الأمية إلى غير ذلك مما تمتاز به الحكومات الأوربية .

إن قيام دولة للمسلمين فى بقعة من بقاع الأرض فرصة سعيدة نادرة لاتسنح فى كل حين ، ومثل هذه الفرص - كما يعرف المطلع على السنن الالهية وعلى تاريخ الاديان والدعوات الاصلاحية - قد تسنح بعد قرون ، وتكون من فلتات الدهر وفى قصرها كوميض البرق فى ليلة مظلمة ، وتكون امتحانا عظيما لرجالها كيف يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية وراحتهم ولذائذهم ، فاذا انتهزوا هذه الفرصة وعرفوا قيمة الوقت وأحسنوا تمثيل هذه العقيدة والدين الذى ينتسبون إليه وحسن ظن الناس بهم وصدقوهم فى مايقولون فقد خدموا دينهم وأنفسهم خدمة باهرة . وإن كان غير ذلك فأساءوا استعمالها واستغلوها لمصالحهم الشخصية على حساب الدعوة الدينية ورجالها المخلصين وجهودهم فى سبيل نشر هذه الدعوة وقيام هذه الحكومة كما فعلت الدولة الاموية والعباسية ودول كثيرة ، فقد ضيعوا الفرصة وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدعوة التى وصلت أسبابها بأسبابهم دورها ، وما يعلم أحد متى يعود هذا الدور ، وهل

يعود أولا ؟ فقد شهد التاريخ أمما وجماعات كثيرة ضيعت فرصة حكمها وسلطانها ولم تنتفع بها وانتهى دورها القصير أو الطويل فوقفت مع المتفرجين المنعزلين وبقيت تنتظر دورها فى حلبة الامم وتعض على تفريطها بنان الحسرة و الندم .

هذا وإن الحكومات الاسلامية ومن كان على رأسها أن ينتهزوا الفرصة ويحرزوا قصب السبق ويبلغوا بهمتهم وعنايتهم إلى حيث لا يبلغ إليه كبار الصالحين والاتقياء بعبادتهم وزهدهم ، وذلك بما آثرهم الله من حول وطول ونفوذ وسلطان وفرص لا تتأتى لغيرهم ، ولهم أن يصلوا فى خدمة هذا الدين وإعادة شبابه واصلاح المجتمع وتغير اتجاهه من الجاهلية إلى الاسلام فى يوم واحد - اذا أرادوا بذلك وصحت عزيمتهم وصدقت نيتهم - مالا يصل اليه المصلحون والمؤلفون والعاملون فى أعوام وقرون وينالوا من رضا الله وثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ما يغبطهم عليه كثير من العباد والمتقين وعباد الله الصالحين . وما أطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكبير والخليفة الراشد إلا بتغييره مجرى الحكومة من الجباية والهداية والاصلاحات التى قام بها وبرجولته وعصاميته فى سبيل مبدأه ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيم زائل ومتاع فان ، وأنواع من لباس وطعام ودواب وأنعام - كان لا بد أن يتركها يوما من الايام - لو وزن ذلك كله بما اكتسب من نعيم لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع وما يرجو من مرافقة محمد ﷺ وأصحابه والالتحاق بحزبه وما جعل الله له من لسان صدق فى الآخرين لرجح ما اكتسب رجحانا واضحا وعد من كبار الأذكيا. وعقلاء العالم.